مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

منزلة «المستدرك»[1] و«معجم الملابس»[2] لدوزي (1820 – 1883) من التأريخ للفظ العربي

بحث : منجيّة منسيّة

يتمتع مستدرك دوزي بمزايا متعددة حتى انه لا يُسمح لمن يتتبع مراحل المعجمية وتطورها ان يغض الطرف عنه. إلّا انه قد يعتبر من النقص الاقتصار عليه إذا ما أردنا إبراز جهود الكاتب التأريخية للفظ. لذا يتحتّم علينا أن نتمّم عنايتنا بمعجم آخر لدوزي حتى وإن سبق المستـدرك بأربعين سنة تقريبا وقلّ نسبيا عدد الالفاظ فيه.وتبرز قيمة **المعجم المفصل للملابس عند العرب** أساسا فيما تضمّنه من معلومات ومناهج للبحث ومن مقترحات حتى انه لا يمكن الحديث عن المستدرك إلا بسبْقه وهذا: فمعجم الملابس يعتبر بداية الحلم والمستدرك محاولة لإنجازه مع الوعي بصعوبة ذلك الانجاز.

وان اعتبر عمله ثروة تدعو الى التوسع فيها بحثا، فاننا سنقتصر على ما يتفق وغـرض النـدوة فنحصر الـدراسـة حول مفهوم المعجم

---

(1) Supplément aux Dictionnaires Arabes, Leyde ـ
وقد استعمل البعض (ملحق او تكملة) لترجمة Supplément

(2) Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. E.J.Brill 1881 ـ
وقد قام الدكتور أكرم فاضل بنقل جزء منه الى العربية في مجلة اللسان العربي ج 3/1973.

التاريخي عند دوزي وحول ما يتماشى مع هذا المفهوم من مختلف مراحل المنهج المعتمد.

1 ـ الاطار التاريخي:

1 ـ 1 : لا يمكن اعتبار قيمة معجم الملابس والمستدرك بعده أو الغرض الحقيقي منهما إلاّ إذا نزّلناهما منزلتهما الظرفية من علاقتهما بالمسار السياسي والثقافي في القرن التاسع عشر وما شهده هذا القرن من تطورات في العالم الغربي أدّت الى استحداث علاقة خاصة بالعالم العربي، شرقه وغربه تبعتها اهتمامات بهذا العالم الآخر لاستكشاف أوجه طرافته مما دعا الى تدفق بعثات علمية رسمية وغير رسمية وظهور فئة من الباحثين أخذت على عاتقها ولوج أعماق الذهن العربي بالخوض في خباياه التاريخية والادبية والاجتماعية عامة،سواء عن طريق الاكتشافات الاثرية او الابحاث العلمية أو تحقيق المخطوطات والتعليق عليها لفهم هذه النصوص فهما يمكنهم من إجلاء رواسب هذه الحضارة ومميّزاتها فكرا وسلوكا وذلك من شأنه ان ييسر عليهم التغلغل في هذه المجتمعات المقصودة تغلغلا أعمق فضلا عن الدوافع الحقيقية المختلفة الداعية لذلك.

وقد غذّت هذه التجارب أدب الرّحلة بحيث دوّن أصحابها ما شاهدوه إقليما إقليما ووصفوا وقارنوا وبادروا بالتحليل،وقد أعانهم على ذلك ما توفّر من بوادر علوم إنسانية كعلم الاجتماع والانتروبولوجيا وعلم التاريخ والجغرافيا. فضمّنوا هذه الأوصاف مصطلحات خاصة بتلك المجتمعات ورأوا انه عليهم شرحها وتفصيل وصفها،كما ظهر منهم من اعتنى بترجمة بعض المخطوطات أو أجزاء منها وشفعوها بتعاليق لغوية لتيسير تبليغ الصورة إلى الفهم الغربي.

1 ـ 2 : ويندرج مجهود دوزي ضمن هذا المسار الاستشراقي العام وتنضاف الى ذلك اهتماماته الشخصية بالتاريخ العربي وخاصة

الاندلسي [3] قبل وضعه للمعجم ولقد اعتنى بعد وضعه بالتعليق على بعض المخطوطات العربية وبأثر الألفاظ العربية في اللغات الهولندية والاسبانية والبرتغالية [4]. وكان واسع الاطّلاع على المصادر العربية وعلى تجارب المستشرقين العديدة ممن شاركوا في النشر او التحقيق او في وضع المعاجم كدي غوية (DE Goeje) وانجلمان (Angelmann)،فجابه عبر كل ذلك قضايا اللفظ العربي مباشرة وقيّم حدود هذه المجهودات الاستشراقية واضافاتها الثمينة مما دفعه إلى تدارك النقص واقتراح اتجاه جريء من حيث المحتوى والمنهج،غايته في ذلك الحصول على معجم يعتني بدلالة اللفظ في مفهومها الحضاري لتبليغها الى القارىء الاوروبي الذي كان هو المقصود أساسا من هذا العمل خاصة بعد ان أدرك عجز المعاجم التقليدية عن تحقيق المقصود. وسنحاول في مرحلة أولى تحديد موقفه من المعاجم العربية.

2 ـ قصور المعاجم:

لقد نقد دوزي حدود المعاجم التقليدية من حيث اقتصارها على الفصيح دون اعتبار ما توارد من المولّد وما تبنّته غالبا من تعريف دون اعتبار السياق او التركيب او الاستعمال اليومي عبر اللهجات والتّحولات،وأكبر دليل على ذلك انه اشار، من خلال 246 مصطلحا في معجم الملابس،الى غياب 122 مصطلحا في المعاجم العربية المعتمدة

---

(3) ـ كتب:

Scriptorum arabum loci de Abbadidis Leyde 1846

كما كتب:

Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge

ط1: 1849 وط2: 1860

(4) ـ Dozy et Engelmann. Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe 2 édition, Leyde et Paris 1869

Verklarende, lÿst der Nederlandsche woorden, die nithet Arabisch Hebreeuwsch, Chaldeewsch, Perzisch en Turkisch of Komstig zÿm, La Haye etc 1867

او غاب على الأقلّ المعنى المتداول في بعض المؤلفات العربية. وكذلك الحال في شأن الالفاظ التي جمعها في المستدرك: فلفظ رئيس مثلا لا تخلو منه أيّ رحلة بينما هو مفقود في المعاجم في ذلك المعنى. وان هذه الالفاظ، وإن عُرِّفت، كان تعريفها يرد عاما أو غامضا تنقصه الدّقة والتفصيل: كقلنسوة وكساء وثوب... كما يعيب على هذه المعاجم عدم اعترافها بصيغ صرفية استعملها الكتّاب العرب بدون حرج رغم مخالفتها قوانين اللغة: كأفحش، جَوْهَر، مجوهر، انحزم، بخانق [5]... ثم هي خاصة لم تعتن أساسا بتحديد أصل اللّفظ ولا بمراحل اشتقاقه. إلّا أننا بدورنا نعيب على دوزي في هذا المجال تعميمه هذا النقد بينما لم يعتمد عددا كبيرا من هذه المعاجم،فقد انحصر تعويله على الصّحاح والقاموس المحيط [6] في معجم الملابس واضاف محيط المحيط في المستدرك. وهذه المعاجم ليست من أقدمها ولا من أمّهاتها.

وفي الحقيقة فموقفه هذا ناتج عن إدراكه لحتمية التغير والتحول وهذا ما دفعه إلى البحث في الدواعي التاريخية لتغيّر العربية.

3 ـ تغيّر اللغة العربية عبر التاريخ:

يعدّد دوزي في مقدمة المستدرك الأسباب الدّاعية لتغيّر العربية تغيّرا تضاعف تدريجيا بالاحتكاك الناتج عن عدّة عوامل أهّمها:

ـ 1 : الفتوحات السريعة وما أدت اليه من اتّصال بأمم مغلوبة تكلم أهلها العربية فلحنوا وأثّر ذلك اللحن في العرب ذاتهم مما انجرّ عنه تحوّل في استعمالهم للغتهم دون اعتبار القواعد اللغوية واستعمال الألفاظ في غير محلها المعتاد. كما أدّى بهم ذلك الى الاقتراض من لغات

---

(5) ـ دوزي: معجم الملابس: ص 374 ـ 96 ـ 139 ـ 56

(6) ـ استعمل الصحاح وكان لا يزال مخطوطا رقم 85. أمّا القاموس فكان قد نشر بكلكوتا

(7) ـ البستاني، بطرس: محيط المحيط

هذه الأمم : السّريان والفرس والقبط والبربر والاسبان والترك . . . وفي المقابل هجروا الالفاظ الكثيرة التي كانت تعبّر عن أفكار بدوية بينما استحدثوا ألفاظا تعبّر عن هذا الوضع الجديد وما لحقه من ترف .

ـ 2 : انقسام الامبراطوريات إلى دويلات وأقاليم شرقا وغربا وامتياز كلّ إقليم بلهجته الخاصة .

هذا وقد صادف هذا التغير رفض من قبل فئتين :

* فئة رجال الدّين والفقهاء الذين لم يعترفوا إلا بالفصيح ورفضوا فكرة تغيّر الغة لتغيّر الفكر.

* وفئة ألّفت المعاجم وسنّت النحو ونقدت الاخطاء بكلّ قسوة واقترحت تصحيحا .

وإنّ هذه الجهود المعادية،وإن منعت ظهور لغة أخرى كما وقع في الغرب،فانها لم تعزل العربية عن التأثيرات السياسية والاجتماعية.فتولدت ألفاظ ومعان . ولم ير الكُتّاب حرجا في استعمال الألفاظ الدّخيلة أو حتى العاميّة منها .

واعتمادا على هذه الاعتبارات رأى دوزي ضرورة تحديد مسار سياقي تأريخي للمعجم .

4 ـ مفهوم المعجم التاريخي :

4 ـ 1 : لئن اعتبر المعجمان هامين في هذا المجال،فان تقديمه لهما هو في نظري أهمّ،لما عرضه من خطّ واضح ومقترحات طريفة منها العاجل ومنها الآجل . فلئن تمثلت مقدمة المستدرك ، في جانبها العملي ، في تحديد المنهج والمراجع ، فان مقدمة معجم الملابس قد سبق لها ان تعمّقت أكثر في مفهوم المعجمية وحدّدت الغايات البعيدة منها وأبرزت المقصد المعنوي وما يحمله اللفظ من دلالات اختلفت باختلاف الظروف فأتى دوزي بتعريف لمعجم عربي متلاحق المراحل يحدّد أصل الدّال مع تحديد أصل استعمال مدلوله ويحصر دلالته بأكثر دقّة ممكنة مع

مراعاة مختلف الدلالات التي سمل عليها عبر مراحل استعماله الزمني وحسب اختلاف الأقاليم العربية. فلقد رسم تاريخ كل لفظ باعتبار المكان وعبر الزمان وما يحمله من معان متنوّعة حسب متطلبات النثر أو الشعر. وهو معجم جامع لكل الالفاظ المكتوبة والملفوظة عامة حتى وان خرجت عن نطاق الفصيح.

4 ـ 2 استحالة فتعويض: إلّا انه يرى ان مقترحه هذا مستحيل التطبيق في تلك الظروف على الاقل وذلك لعدة اسباب منها:

* كثرة المخطوطات المتفرقة عبر العالم والتي لم يقع الاعتناء بها بعد (لم ينشر آنذاك سوى 50 عنوانا) فلا بدّ أوّلا من جمعها وتحقيقها ونشرها.

ـ عدم التعمق في دراسة أمّهات الكتب الادبية والعلمية والمقارنة بينها.

وبصفة عامة فهو عمل يتطلّب نفسا طويلا وتظافر جهود علماء من القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وإفريقيا،ثم إنه لا يمكن التفكير جدّيا في إقامة معجم كهذا وحال المعجمية على ما هي عليه في تلك الفترة،إذ انها لم تتقدم على غرار تقدّم العلوم التاريخية والجغرافية وغيرها.

وفي انتظار هذا المعجم المثالي الشامل،اقترح دوزي أعمالا تمهيدية من شأنها ان تتقدم بالمعجمية شوطا وتتبنى ولو جزئيا بعض مراحل هذا المعجم وتتمثل في ثلاث إمكانات:

ـ 1 : إمّا إضافة تعاليق لغوية في الهوامش عند تحقيق النص أو شفعه بشرح للكلمات الصّعبة:وهذه طريقة قد اعتمدها عدد من المستشرقين وسوف يعمل بها دوزي ذاته في مرحلة موالية [8].

ـ 2 : وإما جمع الالفاظ الخاصة بميدان معيّن من الميادين ومحاولة التفصيل في الاعتناء بها اعتناء تاريخيا. وهذا ما قام به في معجم الملابس حينما اختار التأريخ لمصطلح اللباس عند العرب حتى كان نموذجا

---

(8) ـ Dozy et Goge, Gossaire joint à la description de l'Afrique et de l'espagne (publiée par Dozy) Leyde 1866

مصغّرا لما اقترحه عامّة إلا انّه لم يخل من بعض العوارض.

ـ 3 : وإمّـا جمع الفـاظ تنتمي إلى حيّز واحـد سواء كان زمنيا أو مكانيا. فما مدى استجابة دوزي عمليا لمقتضيات التأريخ للفظ العربي ؟.

5 ـ مجهوداته التاريخية :

لقـد آمن دوزي بالـدور الهام الذي بامكان هذا الصنف من المعـاجم ان يضطلع به لو تمّ تحقيقه، في إزاحة اللثام عن محيّي اللفظ وخباياه الحضارية وما يعكسه من تلاحق المراحل التاريخية. ورغم أنّه اعترف بعسر تنفيذ مااقترح،فقد حاول في المعجم ثم في المستدرك ان ينتهـج منهجـا يفي على الاقـل ببعض ما وعد،وعلينا هنا ان نحاول الكشف عن هذه المجهودات التي تتمثل أساسا في اختياره للمصادر والمـراجـع او الرصيد اللغوي أو منهج التعريف وكيفية اخضاع هذه المعطيات إلى غرض حضاري وثائقي وإن كان في ظاهره شرح وتفسير.

5 1 : المصادر والمراجع :

ـ 1 : لعلّ أهمّ ما يشدنا في معجمي دوزي قضية المصادر من حيث تعـددهـا وتنـوّعهـا وكيفية استغلالها،وقد هداه توجّهه التاريخي للحضارة العربية والاسلامية إلى تجاوز المعاجم واعتماده ما دوّنه المؤلفون العرب وغير العرب في مختلف المجالات وبشتّى اللّغات. فاذا كانت توازي 439 مصدرا في المستدرك، فإن معجم الملابس ـ وإن لم يحصرها دوزي في قائمـة ـ يضمّ حوالي 346 من بين 94 مصدرا عربيا 75 مخطوطـا وفي المستدرك 47 مخطوطا من 108 مصدرا،وقد عوّل بصفة خاصة على المخطوطات المحفوظة بمكتبة ليدن او تلك التي وفرها له بعض اصدقائه من الباحثين.

والمـلاحظ ان تعويله على المصادر العربية هو من ناحية محدود بحدود المتوفّر لديه آنذاك، فهي لا تمثّل كل المراحل التي مر بها اللفظ العـربي ولهـذا فقد فاته ذكر الكثير منها: فلم يعتمد على سبيل المثال

الموشّى [9]، وهو الذي تميّز بوصف المجتمع البغدادي في أوج تمدنه او حتى وإن اعتمد بعض هذه المصادر، فان الكثير من العبارات فاته إدراكها ولم يقم بتجريد تام لها كما حدث بالنسبة الى المقدسي [10] مثلا. وهو لم يرجع غالبا اليها مباشرة بل عبر المراجع الغربية أو حتى العربية. كما انه لم يعوّل على اقدمها للوصول الى تحديد أدنى ثمّ ترتيب مراحل الاشتقاق. فلفظ «أبو قلمون» مثلا اعتمد في المستدرك لتعريفه على ما نقله الاصطخري عن المقدسي بينما نجد ان الجاحظ قد سبق ان ذكره في كتابه التبصر بالتجارة[11] كما ذكره الهمداني في كتاب الجوهرتين العتيقتين [12] فهو لم يرجع الى مصادر أقدم من تلك التي دونت حياة الرسول إ لا نادرا، ولم يعتن كثيرا بسجلّات الجاهلية.

وبشكل عام فقد اعتبر هذه المؤلفات العربية قاصرة عن توفير المعلومات الشافية لما بخلت به من وصف دقيق وتوسّع في التحليل لذلك غلب التجاؤه الى المراجع الغربية.

5 ـ 2 : المراجع الاجنبية:

اعتمد دوزي في معجم الملابس ما يقرب عن 239 مرجعا باللغة الاجنبية بالاضافة الى ثلاثة مخطوطات بالفارسية وفي المستدرك ما يقرب عن 331 مرجعا وكانت على اربعة اصناف:

أ ـ معاجم موحدة أو ثنائية اللغة: عربية لاتينية أو عربية اسبانية أو عربية بربرية وعربية فرنسية أو عربية ألمانية. [13].

---

(9) ـ الوشّاء، ابو الطيب: الموشّى بيروت 1965

(10) ـ انظر: الالبسة العربية في القرن الرابع الهجري من خلال أحسن التقاسم للمقدسي، مجلة المعجمية، تونس، العدد الرابع 1988، ص ص 11 ـ 36

(11) ـ الجاحظ، ابو عثمان عمرو: التبصرة بالتجارة، تحقيق ح ح عبد الوهاب، القاهرة 1935. ص 22

(12) ـ الهمداني، احمد بن يعقوب: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تحقيق محمد محمد الشعيبي، ط1، اليمن ص 25

(13) ـ ذكر من بينها مخطوطا لاتينيا عربيا بليدن رقم 231 وآخر هو Vocabulista وكذلك معجما عربيا فرنسيا لـEllious Bocthor ومجمعا لـBeaussier إلى غيرها من المعاجم وهي عديدة.

ب ـ تحقيقات وحواشي لمصادر أو دراسات حول الحضارة العربية
ج ـ ترجمات لها او لبعض أجزائها [14]
د ـ وبصفة خاصة رحلات دوّنها عدد كبير ممن توافدوا على الاقاليم العربية من فرنسيين وهولنديين وانجليز والمان واسبان وايطاليين ولعلّ معجمي دوزي يعتبران في هذا المجال ثروة لمن يريد دراسة صورة العالم العربي من خلال الرحلات الغربية، فقد حصر قائمة هامة تغني عن البحث [15]. وقد اعتمد هذا الصنف لما حواه من أوصاف دقيقة وشروح للفظ ومدلوله مكّن الغرب من أكثر معلومات ممكنة.

ولقد نجد دوزي عددا كبيرا من هؤلاء المستشرقين كوايلد أو كاترمار ولين [16] وغيرهم لما امتازوا به من أمانة وسيطرة على الموضوع ودقة في التعريف والبرهنة. إلا ان هذا لم يمنعه كذلك من التعبير عن احترازه من هذه المراجع فنقدهم متى وجب النقد وساءه منهم أحيانا سوء التأويل والاخطاء والاعتباطية حتى انه حصر في بداية المستدرك قائمة من الالفاظ عند بيدرو دي ألكلا [17] لم تكن كتابتها متأكدة. وقد أجبره ذلك على ترك عدد كبير من الالفاظ والملاحظات.

---

(14) ـ كترجمة Rasmussen في «Annals Islamisi» للدمشقي او ترجمة Quatremère لسلوك المقريزي وكتاب البكري او ترجمة Père Moura لرحلة إبن بطّوطه بالبرتغالية. . .

(15) ـ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
Light: Travels in Egypt, Nubia: Holy land, Mount Libanon and Cyprus. Vansleb : Nouvelle relation, d'un voyage fait en Egypte... Wittman: Travels in Asiatic Turkey, Syria and Egypt...

(16) ـ New Reipbesch reibungeines gefangenen Ghristen - Wild
انظر رأي دوزي في المعجم ص433 وQuatremère له عدّة مؤلفات نذكر من بينها:
Mémoires géographiques et hist. sur l'Egypt و Histoire des Sultans Momelouks
ـ انظر تعليقه ص398 و Modern Egyptians: Lane و 1001 Nigths

(17) ـ Pedro de Alcala وله معجم اسباني عربي طبع في غرناطة 1505 (انظر مقدمة المستدرك)
ويعطي مثالا في معجم اللباس حول أخطاء الترجمة: فلقد ترجم Quatremètre مثلا عصابة ب Drapeau في مقطع للمقريزي يتحدث فيه عن النساء بينما ترجم De Sacy عصائب سلطانية ب Turbons royaux ولو عكسا لأصابا (ص301)

5 ـ 2 : الرصيد المعجمي :

إنّ حكم دوزي القاسي على المعاجم لهو في حقيقة الامر ناتج أساسا عن اقتناعه بان اللغة هي نتاج الفكر تخدمه وتلبّي حاجياته مهما كانت هذه الاحتياجات وحسب فعل الظروف فيها. ولذا لم يقف عند صفوية الفصيح لأنه لا يفي بحاجيات الفكر وتغيّراته ولا يصوّر الضرورة الاجتماعية التي يلعب فيها اللفظ دورا حقيقيا فتجاوزه الى إضافة ما تولّد من الالفاظ والمعاني بحكم تطور المجتمع الاسلامي والتأثيرات الداخلية أو الخارجية التي نجمت عن الانقسام الاقليمي من ناحية والاحتكاك بالحضارات الاعجمية من ناحية ثانية. فهجر بعض المصطلحات او المعاني المتداولة لفائدة مصطلحات خلت منها واستجدت بعد عصر الاحتجاج. . وجمعها دون اعتبار مقياس لساني ولا تمييز بين الفصيح والعامي بل اعتبر العامية في المرتبة نفسها. كما اعتبر اللهجات متممة لها بل محيية لأنها المصورة للواقع اللغوي الناجم عن الواقع الحضاري.

وقد اضاف الى هذا الرصيد الألفاظ الأعجمية الدخيلة والمعربة وتعامل معها بنفس تعامله مع اللفظ العربي ذاته من حيث الترتيب والجذر دون مراعاة القواعد والفروق، إلاّ ان ذلك أوقعه في الزّلل على مستوى المصطلح على الاقل لأنه لم يحترز كثيرا من أخذه عن المخطوطات او المراجع الغربية رغم كل مجهودات النقد.

5 ـ 3 : الوضع :

1ـ : أما التعريف فغالبا ما يكون عند دوزي مرحلة ختامية يسبقها منهج يتمثل في معاينة الاحداث وذكر الشواهد، شاهدا شاهدا، مع استقرائها للتأكيد على هذا المعنى او نفيه أو على هذا الاستعمال اللفظي أو ذاك. فالتعريف هو نهاية مطافه في هذه المصادر والمراجع وما يأتي به من براهين قائمة على المقارنة بين الشواهد او باعتبار القياس او هو يعوّل احيانا على الترجمة لفهم المعنى والاستنتاج الدال مع تقييم مستوى فهم المترجم رغم انه يبدي احيانا عجزه عن ترجمة

بعض المقاطع [18] كما انه يراعي في تحليله تصرف الشعراء وتحرّرهم من قيود القاعدة خدمة للنظم او توشية بالمحسنات البلاغية من مجاز وتشابيه [19] وكذلك في الترجمة رغم انه يترجم احيانا بشيء من الحرية.

2 – : اختلاف النطق:

لقد اعتنى دوزي في بعض الاحيان بملاحظة كيفيات متنوعة في نطق اللفظ أو تغييرات طارئة عليه وسجل التطور الصوتي كما تعرض للخصائص الصّوتية لبعض اللغات ـ وإن كان ذلك عرضا ـ وكيفيات تغيرها عند العرب، فكان يذكر هذه الاختلافات على مستوى النطق أو الشكل بدون تعليق أو تفضيل إلاّ أنّه يلاحظ عدم تطابقها احيانا مع الواقع اللغوي. وبالرغم من ذلك كان يقع في اخطاء من حين لآخر لأنه كان ينقل عددا من الالفاظ رسمت بالاحرف اللاتينية إذ كان يجهل أصل كتابتها بالعربية ثم انه كان يرجع بضرب من المقارنة في تقييمه أحيانا للفظ الى مقياس لغوي فصيح [20].

3 ـ : أصل الكلمات:

وقد سمح له ما تمتّع به من سعة اطلاع ومعرفته لعدّة لغات بالبحث في أصل الكلمات ومعاينة التأثر والتأثير إيمانا منه بترابط الحضارات والثقافات حركيا وسكونيا. وهو، وان عبّر صراحة عن عدم تحرّجه من خوض مغامرة التأويل والتخريج الاشتقاقي، قد حاول من حين لآخر ان يرجع اللفظ الى اصله خاصة اذا كان اصلا أعجميا، فارسيا أو تركيا أو اسبانيا أو بربريا أو عبريا مع ذكر صورة انتقاله أحيانا، إلا انه لم يتخذ ذلك قاعدة مطّردة. وحتى وان ذكر الاصل الاجنبي فانه

---

(18) ـ ذكر فقرة حول التصوف بالفارسية لم يتمكن من ترجمتها

(19) ـ انظر معجم الملابس ص42 ـ 62 ـ 262 . . .

(20) ـ انظر حول شدّ ص214 أو خفية ص168 او الفواقي ص286 معجم الملابس

لم يحسم هذه القضية حسما موضوعيا بل كان غالبا على سبيل التخمين والتكهن مما أدّى به الى احتمالات اكثر منها تحققات. هذا علاوة على انه لم يرجع إلى الأصول السّامية أو الأرامية.

ولقد اعتنى من ناحية اخرى بأصل استعمال المدلول مثلما اعتنى بأصل الدال،فكان اللفظ لا يعنيه بقدر ما يعنيه ـ بالاضافة الى أصل الصيغة وتطورها-البحث في بداية استعمال المدلول وتطوره. فنراه خاصة في معجم الملابس يجهد نفسه في التحليل والابتعاد بالمعنى لغاية استنتاج بداية استعمال مدلول اللّفظ كالبحث في أصل لبس النساء الطاقية (في عهد المماليك) أو تحديد ما دخل من اللفظ والمعنى عند دخول العرب اسبانيا او بعد الحكم المسيحي او غزو العثمانيين لمصر. وهذا غزو جعله مرجعا تاريخيا لدخول اللفظ التركي في العالم العربي الى درجة أنّه تساءل بل ابدى استنكاره ودهشته حول وجود الفاظ تركية بمكّة في القرن الرابع عشر بعد الميلاد [21] اي حوالي قرنين قبل غزو العثمانيين لها. هذا بالرغم من انه كان يصرّح بعجزه عن تحديد هذا الاصل: فحول القفطان مثلا عبّر عن جهله لفترة استعمال العرب هذا اللفظ من أصل أجنبي: فالرسول لم يلبسه ويظهر ان العرب كانوا يجهلونه آنذاك رغم انه عثر له عن ذكر عند القدامى كالمسعودي مثلا. وهو يعتمد في اغلب الاحيان على ما لبسه الرسول فيعتبره النموذج العربي الاسلامي المنتمي الى حيّز معين والقدوة من حيث مراعاة الحدود الدّينية. وذهب بمعاينة التغيّر الحاصل عبر الزمان الى مقارنة لباس الرسول بلباس شريف مصري في القرن السادس عشر الا ان هذه المقارنة في غير محلّها [22]، فالرسول طبقيا كان يعيش حياة بسيطة لم يعشها الاشراف آنذاك،ثم هو ينتمي الى الاقليم نفسه والمقارنة تتطلب نفس الزمان او نفس المكان.

---

(21) ـ معجم الملابس ص337

(22) ـ نفس المرجع ص217

4 ـ : الانتماء الحضاري:

تركـزت رغبـة دوزي أسـاسا في الكشف عمّا يحمله اللفظ من اشارات ورموز تتميّز بها حضارة مجتمع معيّن خاضع لاعتبارات مادية ومعنوية. فكان يشير عبر ما يجمعه من تعليقات واستشهادات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الى ما تميّز به هذا المجتمع او ذاك من انتماءات مدنية: بدو/حضر. أو طبقية؛ أمراء، أشراف/إماء، عبيد/جواري. غلمان/عامة. فقراء. أو دينية مذهبية: رجال الدين/الصوفية / أهل الذمة... أو اعتبارات نفسانية: حزن / فرح / اقتصاص. حقد،مع اعتبار العادات والتقاليد [23] التي تنطوي عليها هذه الاشارات وحتى وإن جرّته سعة المعلومات هذه إلى استطرادات فإنها أخرجته من مستوى المعجم المقتصر على الشرح المختصر الى توفير وصف دقيق مفصّل يوحي بثقل أزر اللفظ الدلالي والمعنوي.

5 ـ : من تعدد المعاني الى التوالد:

إن تعـريفـه لهو في الحقيقـة تحليل لكيفيات استعمال اللفظ في دلالات مختلفة متعددة متنوعة حسب السياق والتركيب النحوي وخاصة الحقل الحضاري الذي تتحرك فيه. فكان يربط اللفظ أساسا بالمعاني والاعراض ويحلّلها بعلاقتها بالمجتمع الذي يفرض عليها معنى يتصرف فيه متى اقتضت الحاجة، لذا نراه ينطلق أحيانا من المعنى لدراسة اللفظ (Onomasiologie) أو العكس (Sémasiologie)،وهـو يراعي تطور هذا الاستعمال مع التغيرات الحاصلة. فهو يجمع تعدد المعاني للفظ الواحد

---

(23) ـ بالنسبة الى أهل الذمة مثلا: المسح: لباس العبيد المسيحيين والطيالسة العسلية في عهد المتوكل وكذلك الزنار. ومن ناحية اخرى فشكل العمامة في حدّ ذاته يفرق بين السيد والجندي ورجل الشارع كما يميز حتى نوع العمل الذي يقوم به المتعمم

ـ حول الحزن والفرح... انظر قضية الالوان: معجم الملابس ص6ـ7

– اما من حيث ذكره للعادات نذكر هنا تحليله لكيفية تقبيل الأرض أو عند إشارته لمحاسن المرأة العربية لتفسير بيت المتنبي، معجم الملابس ص 429...

إلا انه يخرج من التعدد المطلق ليحاول تحديد الحيّز الزماني لكلّ معنى اي التسلسل المعنوي أو التوالد على مستوى اللفظ والمعنى حتى يصل به المطاف الى إبراز تأثر الحضارات الاخرى في اقتراضها بدورها اللفظ العـربي مع الابقاء على معناه او تغييره كاقتراض الاسبانية والبرتغالية والفرنسية والمالطية وحتى الهولندية. ويبرز عمق استنتاجات دوزي أحيانا دقّته [24] في تحديد الاطار الزماني عند ذكر تاريخ الحدث (خاصة عند أخـذه عن المقـريزي مثـلا) عنـد الاستشهاد بنصّ. ويؤدي به هذا التحليل والـدقة في التحديد التاريخي للفظ الى حصر امكانية تاريخ تأليف بعض المصـادر مثل ألف ليلة وليلة إذ وصل به الاستنتاج الى تحديد فترة تأليفه بعد الغزو التركي [25].

6 ـ : **التميّز الاقليمي**:

بالاضافة الى التحديد التاريخي وما يعمل من تحويرات كلية أو جزئية سواء في اللفظ على مستـوى النـطق أو الصّيغـة أو المعنى على مستوى التعدّد والتوالد، اعتنى كذلك بالتحديد المكاني وتأثيره لأنه كان يؤمن بدور الامصار في اثراء الفكر العربي والانماط الاجتماعية من ناحية واللغة العربية عبر لهجاتها المختلفة وخصوصياتها في النطق والمعنى من ناحية أخرى. فقد ألحّ على المميزات الاقليمية لفظا ومعنى والاختلاف بين شعوب هذه الاقاليم: بالجزيرة وفارس وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا حتى وإن كانت جلّ هذه الاقاليم تنتمي سياسيا في فترة ما إلى امـبراطورية واحدة تتّحد في الدين واللغة رسميا. فهذا الانقسام ساهم بلا شكّ في تكوين اللهجات واستقلالها حسب كل اقليم ولو كان استقلالا نسبيا.

---

(24) ـ كاعتماده ابن اياس: تاريخ مصر مخ 367 ص41 حول احداث 822 هجري او السيوطي (احداث 282 هجري) او النويري (احداث 235 هجري)

(25) ـ انظر معجم الملابس ص157 و226ـ227

وقد اختلفت في :

1 ـ التـأثـر بالجـوار والاحتكاك دون ان يثنيها حتى اختلاف الـدين: فنـرى المشرق يتأثر بالسريان والبيزنطيين والفرس خاصة في العهد العباسي ومصر والشام بالاتراك بعد الغزو والاندلس بالمسيحيين خاصة في آخر فترة من الامبراطورية .

2 ـ تأثرها بماسبقها في ارضها من حضارات تنتمي الى تاريخها الخاص كتأثر المغرب بالبربر والاندلس بالمسيحيين .

وهذا الاختلاف نجده حتى داخل الاقليم الواحد بين القرى والمـدن مثلا او حتى بين مجموعات دنيا داخل هذه الوحدات . فكلّما اختصت مجموعة بمدلولها إلاّ واستتبعه دال في لهجتها دون غيرها إلا أننا نجـد أحيانـا اشـتراكـا في الـدال مع اختلاف في المدلول أو العكس بالعكس : فالثوب له معنى عام إلاّ انه يقصد به لباس محدد في مصر (توب) وكذلك القميص والكساء واللباس ثم ان البدن هو خاص بمكة وجدّه دون غيرهما والقبقاب لم يجده إلا باسبانيا .

ويقارن فيعثر على نقط اتفاق لفظا ومعنى في بعض الاقاليم (فرنجية في مصر وفراجة في القسطنطينية) أو اختلاف في اللفظ للدلالة ذاتها (حقو عنـد الانـازيس . وبـربم عنـد اهـل الشمال) كما يصل الى حد المقارنة بين البلاد العربية وغيرها من البلدان الاجنبية . وبشكل عام فهو يوحي بامكانية وضع اطلس معجمي . إلاّ ان تخصيصه هذا قد ركز فيه أساسا على مصر بحكم وثـائقـه وعـلى الاندلس بحكم اختصاصه كما وجد صعـوبة حتى في هذا التحديد الحيّزي وفشل غالبا،رغم كل المصادر والمجهودات بما اتسمت به طريقته من تذبذب واضطراب ولم تحلّ هذه المجهودات،عددا من مركبات المعجم التاريخي سواء فيما يخصّ مكوّنات اللغة أو الاصل أو الاشتقاق اللفظي أو حتى المعنوي . ورغم أنه يعيب على لين Lane وخاصة Hoest و Freytag [26] عدم الدقة فانه غالبا ما

---

(26) ـ Nachrichten von Marokos: Hoêšt Freytag و Proverbia Arabica

يقع في السطحية ذاتها والخطأ والغموض. فتكثر عنده عبارات مثل: يبدو ـ ربما ـ اظن ـ افترض (Il me semble, peut être, Je suppose, Je crois) ولعلّ ما نشعر به أساسا انه يفتقر الى منهج شامل يطبّقه على كل المصطلحات فنراه يضطرب في التركيب وضبط المراحل كما يقع عند التأويل والاستنتاج في احتمالات شخصية وان حاول ان يقيمها على البرهان واستقرار النصوص إلا انها لم تكن ثابتة تؤخذ مأخذ اليقين.

وعلى كل حال فلا بدّ من الاشادة بتواضعه عند تصريحه بحدود عمله وقصوره عن الايفاء أو عن تقدير مجهود الآخرين حق قدره أو احترام اختلاف الرأي. فكان كلّما زاد جهده ازداد تواضعا ويكفيه شرفا انه سد ثغرة في المعاجم لا تغتفر حتى اصبح معجماه ضروريين للكشف عن عويص المعاني وخصوصياتها وفي طرح قضية المعجم التاريخي وسنّ منهج مع محاولة تطبيقه. فجاءت ابحاث دوزي المعجمية لتؤكد ان الرؤية الاستشراقية يمكن ان تفيد الى حدّ كبير الحضارة العربية عامّة والمعجم التاريخي بصفة خاصة لأنها توفر إضافة جديدة تعتمد البحث العلمي الذي أصبح يعتمد منهجية جديدة لمعالجة القضايا كما تعتمد بعدا مقارنيا له بالنسبة الى الأعمال المعجمية وتفتح لذلك آفاق بحث جديدة أمام العرب المسلمين لاثراء هذا الطابع من الدراسات الذي مازال في نظرنا في حاجة الى التأليف والاهتمام. وما اعمال دوزي الا نموذج للكثير من المراجع الغربية في هذا المجال والتي تنتظر الى حدّ الآن التعريف بها وإعادة نشرها واعتمادها لتطوير المعجمية العربية.

منجيّة منسيّة